على هامش معالم التقريب *

التكبيرة الصادقة

حين يذكر محمد عبد الله محمد ـ الجانب الجاد فى حياة الإنسان، فإنه لا يقصد تقسيم حياة الإنسان إلى أقسام وأجزاء هذا جاد وهذا غير جاد أو يمكن أن يكون جادا أو غير جاد .. وإنما هو يشير إلى أن حياة الإنسان بطبعها كل لا يتجزأ.. ولكن هذا الكل يبدو أحيانا لوعينا من زاوية الجد فى أكثر الأحيان، ويبدو لنا من زاوية اللعب والهزل والمرح والضحك فى بعض الأحيان .. فالجد ليس ولا يمكن أن يكون حالة دائمة لا تنقطع أو لا تتحللها راحة أو استرواح .. فمعنى ذلك ـ وهو بطبيعته محال ـ أن يختنق الإنسان وتختنق معه الحياة .

ولكننا نشهد فى الحضارة الحالية أقساما منفصلة أو تكاد، وتجزئتها أجزاء منفصلة فى إطار تقسيم العمل أو التخصص .. وأيضًا بالتبعية للمستوى الاجتماعى .. ونشهد شيئًا من ذلك فى انفصال الحياة العامة عن الحياة الخاصة، أو انفصال القانون عن الأخلاق، أو الدين عن الدنيا .. فإذا اخترنا تقسيم العمل مثالا، للاحظنا أنه يحصر أحيانًا نشاط الآدمى فى تركيب مسمار أو صامولة، أو ملء استمارة، أو تغليف سلعة .. إلخ . وهذا التقسيم يفصل العامل عن باقى العملية وعلومها وقواعدها ومهاراتها

* المال ٢٠١١/٣/٣

الأخرى . ونرى ذلك فى التخصص ومجالات المتخصصين التى تحصر كلا منهم فى تخصصه فلا يتناول سواه .

لذلك لم يعد عريبًا أن ترى الطبيب أو المهندس أو الاقتصادى أو الفنى ـ عاديا فى سلوكه وتفكيره، ملتزما النمط الذى تلقاه فى القرية أو الحىّ الذى نشأ فيه، ملتزمًا بذات تقاليدها وأنماط وأساليب السلوك فيها . وشبيه بذلك أثر المستوى الاجتماعى فى نوعية الاقتناء أو عقد الصلات أو التزام الزى والمظهر .

أما انفصال الحياة العامة عن الخاصة، فإنه يعطى تبريراً مسلّماً به للإفلات من رقابة الرأى العام، أو تجنب تتبع المخازى .. وزاد فى البلاء انفصال القانون عن الأخلاق بمقالة إن ذلك من معالم الحرية الشخصية، ومن ثم لم تعد للأخلاق الهيبة التى كانت لها ولم يملأ القانون الفراغ الناجم عن تواريها .

حياة الإنسان بطبعها كل لا يقبل التجزئة، وحالة التحرئة الداخلية أو الانقسام الداخلى التى اعتادها الناس من قرون ـ عوّقت فيما يرى محمد عبد الله محمد ـ نمو الثقة والصدق .. لأن الحياة المفتتة صارت أشلاءً متصادمة يكذب بعضُها بعضًا، ويشهد بعضها ضد بعض، ويندر فيها وجود النماذج المخلصة الخالصة التى يوافق باطنها ظاهرها ويتوحد معدنها وجوهرها فى كل مساعيها ..

ومع نضوب نمو الثقة، فإن الناس قد اعتادوا الاستراية فى دوافع وبواعث المواقف الأخلاقية والدينية .. ويحملون معظمها على الرياء والتظاهر والنفاق .. وانتشر مع ذلك عدم المبالاة بالمبادئ والأصول، وتعطل معظم عمل الدين والأخلاق .

واعتياد هذا البلاء أنسى الناس أنه ضد طبيعة الحياة التى تحافظ على وحدتها وعدم تفتتها .. وأنساهم أن الحياة تنمو نموا مشوها

عليلاً إذا وسع عليها فى ناحية أو نواح منها فقط، على خلاف ما عداها .. فالأجهزة التى تصل حياتنا من طريقها بالعالم الخارجى - تشبه فى عملها عمل الأوانى المستطرقة .. ما يدخل إليها من شوائب يتسرب حتمًا إلى الكل ..

واعتياد النظرة الجزئية وإيثارها باعتبارها تتفق مع طريقة التفتيت التى درجنا عليها فى تحليل المشكلات - أدى ويؤدى إلى انعكاس هذا التفتيت على المحيط المادى الخارجى للحياة الإنسانية، فى القرية والمدينة بل فى المسكن .. وهذه النظرة الجزئية للحياة تبدو على أقسى صورها - فى مغالاة الحضارة الحالية ومبالغتها فى التعلق بالمهارة وإعلاء شأنها . وانتشار عبادة المهارة قد أفقد الناس الإحساس بأهمية الإنسان كإنسان .

وها هنا يمسك محمد عبد الله محمد بأثر ذلك الملحوظ فى " عبادة النفس " كلما شعر الإنسان بتفوقه أو تفوق طائفته أو نوعه وحين يرى الإنسان أنه سيد الكون، تتسلل إليه " عبادة النوع " وهى تسحب - حتى باللا وعى - من صفاء عبادة الحق تبارك وتعالى .

والآدمى منذ يولد، إلى أن يموت، لا يكف عن استعظام كائنات أو أشخاص أو أشياء، ويتراكم هذا الاستعظام فى أحكام تتراكم لديه بقاياها وآثارها، وتنضح فى عاداته .. وهذا الاستعظام عملية شعورية يشعر الآدمى إزاءها بالضآلة أو الضعف، وأحيانا بالتفاهة وقلة الشأن .. وهذا " الاستعظام " يعطى - من ناحية عكسية - على الشعور بجدية الحياة الإنسانية .. بينما لا تكف عملية الاستعظام عن إنتاج مخاوف وحدود وقيود وسدود وأطياف تتسلل مع طول الاعتياد إلى داخلنا، فتستولى على أرواحنا وتصيبها بالجدب والضمور .

ولكن المسلم السوى معه : " الله أكبر " .. وهذه التكبيرة الصادقة تحفظ المسلم وروحه وعقله من أشباح ومردة الاستعظام الباطلة .. فالله سبحانه وتعالى أكبر من كل ما قد يستعظمه الآدمى .. فالله أكبر من الناس كافة، ومن الخلق أجمعين، وأكبر من الرؤساء والحكام والزعماء والسادة .. والله أكبر من كل جمع وعدد، ومن كل ما صنع الإنسان وبنى وأنشأ وركب وحرك وغير وبدّل وادخر وكدّس .. والله أكبر من كل ما يخيف النفس أو يؤلمها أو يحزنها أو يسرها أو يفرحها .. والإنسان حين يملأ قلبه من الله أكبر، يصغر أمامه كل ما سواه، ويتجه متحررا إلى الحق المطلق وتحلق روحه فى عنان السماء .